الثقالة و الثقلاء (١)

ما كان ينبغي أن أثقل عليكم أيها السادة بحديث هؤلاء الثقلاء . الذين ضجّت منهم الارض والسماء . ولا أن أهتم بجمع اخبارهم ولا تعجيبكم من غريب أطوارهم — لولا اني رأيت كبيراً من علماء السلف أفردهم بالذكر في مؤلّف خاص سماه (كتاب الثقلاء) . وقد جمع فيه زبدة من آراء مفكري العرب في ما هي الثقالة . ومن هم الثقلاء ؟

فالكتاب صفحة من تاريخ أدبنا القومي الاخلاقي ومؤلفه كغيره من علمائنا الأقدمين الذين اهتموا بجمع أخبار فئات من الناس شاذة في بعض جوانب اخلاقها ومناحي طباعها . فهذا الجاحظ جمع لنا أخبار (البخلاء) كما جمع في كتاب آخر أخبار (اللصوص) . وابن الجوزي صنّف في أخبار (الحمقى والمغفلين) . والخطيب البغدادي وصف لنا في كتاب خاص أحوال (الطفيليين) الذين يغشون الولائم من دون دعوة .

وكل هؤلاء العلماء لم يهتموا بهذه الطبقات من الناس إحياءً لذكرهم . أو تمجيداً لقدرهم . وانما كان غرضهم إعطاءنا دروساً في أخلاق السوء التي كانت عليها هذه الفئات المأفونة فنتحاماها . ونطهّر أنفسنا من أدرانها . على حد قول الشاعر :

(عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقيه)
(ومن لم يعرف الخير من الشـرّ يقع فيـه)

إذ لا يخفى عليكم أيها السادة أن ساحة هذا الوجود تشبه المسرح الذي تُمثَّلُ عليه الروايات . قومٌ يمثّلون وقومٌ نظّارة : يشاهدون ثم ينصرفون .

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ المغربي في ردهة المجمع العلمي مساء يوم الجمعة الواقع في ١٨ كانون الأول سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكذلك آحاد الناس على مسرح هذه الكائنات: يمثّل قوم وينظر آخرون اليهم · حتى اذا انقضي دورهم صعد الى المسرح من يمثّل دوره مكانهم ثم يخلفه غيره وهكذا · ولا يوجد في هذا العالم أحدٌ لم يمثل دوراً تتحدث عنه الناس مستحسنين أو مستهجنين ·

والغرض من مشاهدة التمثيل سواءٌ أكان على المسرح (التياتري) الصغير · أو على المسرح العالميّ الكبير انما هو العظة والاعتبار · يرى المرء الحسنة فيرغب فيها · ويرى السيئة فينفر منها : فالموفق هو الذي اذا نظر الى الممثلين اتعظ واعتبر · والمخذول من تمرّ به العبر · فلا يكون له حظ منها سوى النظر · حتى اذا مثّل دوره قبح مثالاً · وأضحى في الحماقة أو الثقالة آيةً ونكالا ·

ومثلُ ذلك يقال في تأليف كتبِ الأدبِ والتاريخ واخبار الناس وما تضمنته الأسفار المقدسة من القصص والمواعظ والأمثال — كل هذا إنما أُريد منه عرض صور الممثلين الماضين على انظار الممثلين الآتين · فيجيد كلٌّ منهم تمثيل دوره · ويتجنّبُ خطيئات غيره : فابن الجوزي الذي عرض تحت مواقع أبصارنا مامثّله الحمقى والمغفّلون من الأدوار المضحكة إنما اراد أن يحملنا على الانتباه لأنفسنا فنطهرها من الحماقة في حركاتها وسكناتها · وهو في عمله هذا عاملٌ بآداب القرآن · لأن القرآن أرشدنا الى الاعتبار بأفعال الحمقى · وحذّرنا أن نكون مثلهم · وأن نأتي من الأعمال مأتيهم · فقال تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثا) اي لا تنقضوا عهودكم وتكونوا كتلك المرأة المتناهية في الحمق (وهي ريطة بنت عمرو من نساء مكة) · كانت تنهمك في غزلها هي وجواريها حتى اذا أحكمت فتله · عمدت اليه فنقضته أنكاثاً · أي خيوطاً غير مفتولة ·

ولا يخفى أن الوحيَ الإلهيّ لم يقصد من ذكر قصة (ريطة) المذكورة إضحاكنا وتسليتنا · وانما قصد إرشادنا وتربيتنا ·

وكذلك شأن أولئك المؤلفين · في ما قصوه علينا من أخبار الحمقى والمغفلين ومثلهم مؤلف (كتاب الثقلاء) الذي جعلناه موضوع محاضرتنا اليوم ·

وقد حلل شارح القاموس كلمتي (الثقالة والثقيل) وأشار الى كتابنا هذا اي كتاب الثقلاء فقال معلقاً على قول القاموس (وثقال الناس وثقلاؤهم من تكره صحبته الناس ويستثقلونه) — ما نصه (وواحد الثقلاء ثقيل يقال أنت ثقيل على جلسائك · وما أنت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا ثقيل الظل . بارد النسيم . ويقال : مجالسة الثقيل تضني الروح . ومن أبدع ما أنشدنا في الثقيل بعض الشيوخ :

(وثقيل قال صفني قلت أيش فيك أصف)
(كل ما فيك ثقيل حلّ[1] عني وانصرف)

وقال الراغب : الثقيل في الانسان يستعمل تارةً في الذم وهو أكثر في التعارف . وتارةً في المدح نحو قول الشاعر :

(تخفّ الأرض إما زُلت عنها وتبقى ما بقيت بها ثقيلا)
(حللتَ[2] بمستقر العزّ منها فتمنع جانبيها أن يميلا)

وقد أُلف في اخبار الثقلاء كتاب اه كلام التاج .

ونحن اليوم نستعمل كلمة الثقيل في الذم واذا أردنا المدح حرفناها وقلنا فلان (طقيل) بالتاء المفخمة كالطاء نريد انه وقور رزين .

* * *

في المكتبة الظاهرية طائفةٌ من المجاميع المخطوطة . تحتوي كلُّ مجموعة منها على عدة رسائل مختلفةٍ في أبحاثها . متنوعةٍ في موضوعاتها . وقد كنت يوماً أُنقب في هذه المجاميع وأتصفح ما أُودعته من الرسائل . واذا بي أمام رسالةٍ عنوانها (الثقلاء) فأول ما خطر ببالي أن الثقلاء . هم إخوان الحمقى والبخلاء .

فلا جرم أن تكون النتيجة من دراسة أحوالهم واحدة . وإذ قد طبعت المصنفات عن (الحمقى) وعن (البخلاء) . وعرفت أطوارهم . وشاعت بين الناس أخبارهم فلا يحسن أن نبخس إخوانهم (الثقلاء) حقهم . فلا نعلن أمرهم . ولا نذيع سرّهم . فرأيت من

(١) قوله (حل عني) كذا بالحاء المهملة ولعل صوابه (خل عني) بالمعجمة على أن عامتنا اليوم يقولون — اذا استثقلوا مخاطباً — « حلّ عنا يا » بالحاء المهملة .

(٢) قوله حللت الخ ويروى (لأنك موضع القسطاس منها) واذكر أن هذين البيتين للنابغة قالهما في النعمان وقد لاموه على مخاطبته الملك بكلمة (ثقيل) حتى اضطر الى تغيير الشطر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفاء الذمم أن أصطنع من مضمون هذا الكتاب أعني (كتاب الثقلاء) محاضرةً : ألقيها في هذه الردهة . كما كنت منذ سبع سنوات . ألقيت فيها محاضرةً عن (الحمقى والمغفلين) .

* * *

و كتاب الثقلاء أيها السادة في نحو عشرين صفحة . صغيرة القطع . قديمة الخط . كامدة اللون . قد تكون كُتبت في القرن السابع للهجرة . وهي ضمن مجموعة رسائل محفوظة في دار الكتب الظاهرية تحت رقم (١٨) في قسم المجاميع .

وفي النسخة أغلاط وتحاريف كثيرة . وقد لحقتها رطوبة في أوساط صفحاتها . فتلاصقتْ وانسحجت وتقشّرت . ولما شققتها وباعدتُ بعضها عن بعض فسد كثير من كلماتها في مكان الإلتصاق فكان أحياناً يغيب معنى الجملة . ويتبع ذلك إبهام وغموض في أصل القصة التي جاءت فيها تلك الجملة .

والثقلاء وان كان الناس يمقتونهم ويتجنبون ذكرهم بل ذكر أسمائهم أحياناً فان السلف الصالح رضي الله عنهم اهتموا بهم وتثبتوا في نقل أخبارهم الى حدّ الورع : فهم لم يذكروا لنا تلك الأخبار كيفما اتفق . وانما ذكروها بطريق الرواية والسند . كما اذا كانوا يروون أخبار أنبياء مرسلين . لا ثقلاء ممقوتين . بل الأمر أعظم من ذلك فإن رسالة (الثقلاء) هذه رويت عن مؤلفها بعدة طرق : فقد وجد في أولها وآخرها مايفيد أن (الحسن بن عمار) قرأها على (اسماعيل بن جلدك) القلانسي . وأجازه بها . وأن (علي بن مظفر) قرأها عليه ايضاً مرةً على انفراد . ومرةً مع جماعة . وذلك سنة ٦٤١ للهجرة .

أما (اسماعيلُ بنُ جلدك) فروى الرسالة عن (ابي منصور بن مكارم) المؤدب سنة ٥٨٥ للهجرة . وابنُ مكارم رواها (سنة ٤٨٣ هـ) عن جماعةٍ : فيهم (عليٌّ السراج) و (الحسينُ النجار) . وهؤلاء روَوْها عن (هبة الله السمان) . وهبة الله رواها عن (الحسن الآدمي) والحسن الآدمي رواها عن مؤلفها (ابن المرزبان) سنة ٢٨٠ للهجرة .

أرأيتم ياسادتي مبلغ اهتمام سلفنا الصالح بالثقلاء . ومقدار ماتجشموا من المشقة في جمع أخبارهم ؟ وتمحيص رواياتهم .

ثم أيكون هذا شأن سلفنا الصالح في العناية بهم ونحن نزهد فيهم ونعرض عنهم ولانسمح بساعة واحدة من وقتنا في استماع رواياتهم . والاستفادة من دراسة ثقالاتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما مؤلف كتاب (الثقلاء) فهو من علمائنا الثقات الاقدمين . ذكره صاحب كتاب (شذرات الذهب . في اخبار من ذهب) . وشذرات الذهب مخطوط[1] من أنفس مخطوطات (المكتبة الظاهرية) .

قال مؤلفه (وفي سنة ٣٠٩ للهجرة توفي ابو بكر محمد بن خلف بن المرزبان البغدادي الأخباري صاحب التصانيف . روى عن الزبير بن بكار وطبقته . وكان صدوقاً . والمرزبان كلمة فارسية معناها (حارس الحدود) اه : (مر) حد و (زبان) بمعنى حارس او محافظ .

وقد لاحظت في مخطوطة (الثقلاء) اموراً تدل على قدم المخطوطة واتصالها بالأولين من علمائنا .

من ذلك ان جملة (صلى الله عليه وسلم) التي تذكر عقب اسم سيدنا الرسول لا تكتب في المخطوطة الا مرموزاً اليها بحروف اربعة : الصاد (من صلى) واللام (من الله) والياء (من عليه) و(الواو) (من وسلم) هكذا (صليو) لا بكلمة صلعم كما نفعل نحن اليوم .

وقد رأيت في (رسائل إخوان الصفا) رمزاً للتصلية بحروف ثلاثة فقط وهي (صلع) متصلة من دون ميم . اما (صلعم) فيظهر أنها اخترعت في حدود التسعمائة للهجرة : جاء في شرح الفية العراقي في مصطلح الحديث عند قول الناظم : (واجتنب الرمز لها والحذفا)

أي اجتنب الرمز للتصلية النبوية وحذف حرف من حروفها وانما إئت بها في النطق والكتابة كلها . ثم ذكر شارحها الشيخ زكريا الانصاري أن الشيخ (النووي) نقل اجماع من يعتد بهم على سنية الصلاة على النبي نطقاً وكتابة اذن لا يكون من السنة أن يرمز اليها بحرف ما .

ثم ذكر الشيخ الانصاري أن الكاتب الذي كان أول من رمز للتصلية بحروف (صلعم) قطعت يده والعياذ بالله تعالى . ولا يخفى أن الشيخ زكريا الانصاري توفي في القرن العاشر للهجرة (٩٢٦) هـ .

* * *

(١) شرعوا في طبعه بمصر وقد طبع منه الى اليوم ست مجلدات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نرجع من وصف (كتاب الثقلاء) الى وصف (الثقلاء) أنفسهم فنقول :

(الثقالة) لغة من صفات الاجسام ثم أجدُوا لها اصطلاحاً وجعلوها من صفات الارواح .

والروح في أصل خلقتها . ومحض جوهرها ألطف شيءٍ في الوجود ولذا يسميها بعضهم (اللطيفة الربانية) . لكن قد يعتري هذه اللطيفة حالة مرضية تجعلها غير لطيفة ولا مرضية بحيث يصبح الانسان الذي يجالسها أو يكالمها أو يشاهدها — كأنما حملت نفسه من ثقالتها جبلاً راسخ الأساس . أو كأنّ أحد الناس ضغط على أكظامه فأخمد منه الأنفاس .

فالثقالة الممقوتة هذه تكون في روح الثقيل لا في جسمه . بل كثيراً ما يكون جسمه شختاً نحيفاً قليل الجرم . ومع هذا تشعر النفس بثقالته . وعلى العكس يكون الرجل أحياناً بادناً لحماً ضخم الجثة لكن تكون روحه خفيفة الحمل . لطيفة الظل .

وقد لاحظ علماء الأخلاق أن خفاف الروح يكونون في الغالب سماناً ضخام الاجسام فما علاقة خفة الروح والدعابة بضخامة الابدان ؟ سرٌّ ذلك ما زال مجهولا .

أما الثقالة ولماذا تكون في أرواح بعض الاشخاص دون بعض — فقد ذهبوا في تعليل ذلك (بيسكولوجياً) كل مذهب :

فقال بعضهم : إن الثقالة عدوى واكتساب : فالثقيل يعدي الثقيل . كما أن الأجرب يعدي الأجرب . ولو صح هذا لوجب على الحكومة أن تلقي حجراً صحياً على الثقلاء . وهذا غير مستطاع .

وقال آخر : إن الثقالة ناشئةٌ عن تأثير البيئة والوسط وليس هذا بصواب ايضاً لأن الثقلاء واضدادهم اللطفاء يعيشون في بلدة واحدة وبيئة واحدة . وهواء وماء وطعام واحد ومدرسة وحكومة وعائلة واحدة . ومع هذا يكون أحدهم ثقيلاً . والآخر خفيفاً ظريفاً .

وقال آخرون : إن الثقالة وراثة فهي خُلُقٌ يرثه الثقيل من أبيه أو أحد أجداده كما تورث اللطافة وخفة الروح . وإني اعرف في طرابلس الشام (بل وفي دمشق كما أُخبرت ايضاً) — أخوةً خمسةً كلهم بلغوا سن الشيخوخة وهم من أظرف الناس واخفهم روحاً . واحبهم للنكتة . ويخبرنا المعمرون من أهل طرابلس أن امهم كانت عجوزاً خفيفة الروح حلوة الكلام كثيرة المزاح والدعابة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وربما كان هـذا القول (أي ان الثقالة وراثة كاللطافة) — قولاً صحيحاً . ولكن الاصح منه في اعتقادي أن الثقالة استعدادٌ خاص . ومزاجٌ خاص . في بعض الاشخاص فيكون هذا الانسان مستعداً لقبول هذا المرض الخلقي الخبيث . بينا ذاك الآخر مزاجه غير قابل له بالخلقة والاستعداد . وهذا كمرض السرطان الذي لم يهتدِ الأطباء الى سببه وجُلُّ ما يمكنهم أن يقولوه : إنه ناشئٌ عن مزاجٍ خاص في الانسان لاعلاقة له بالارث .

هذه بيسكولوجية (الثقالة) أما بيسكولوجية (الاستثقال) اي شعور الانسان بثقالة غيره ومناشئُ هذا الشعور وأسبابه فأمره غامض جداً وذلك لتشعب هـذه الأسباب واختلاف تلك المناشئ ونضرب لكم مثلاً قاله[1] أحد (البيسكولوجيين) .

نرى أحياناً رجلاً فنستثقله ولا ندري السبب في كراهتنا له . فمنا من يستثقل الرجل السمين . ومنا من يستثقل الاشقر أو رجلاً آخر له أنف أقنى كمنقار النسر أو نحو ذلك وقد يعلل بعض هذا النفور في بعض الناس بحادثةٍ حدثت له في الصغر ثم انطبع أثرها في نفسه ولازمه حتى الكبر . مثال ذلك ان طفلاً كان يلعب ففاجأه رجل سمين وخوّفه : إما مزاحاً أو لغرض آخر . فانطبع الخوف في ذهن الطفل من كل رجل سمين وشبّ على كراهة السمان وهكذا يقال في كثير من حالات الاستثقال اه .

* * *

وتحمل الثقلاء والصبر على ثقالتهم سُنّة من سنن الدين ومما ينبغي أن يسعه صدر الحليم . ولكن الى حدّ محدود .

اما اذا تجاوزت الثقالة حدها . وزاد بردها . وطغا مدُّها . فحينئذٍ لا الوحيُ الالٰهيُّ يأمر بالصبر عليها . ولا الأنبياء عليهم السلام بملومين اذا انفضوا من حواليها . وشاهدُ ذلك ما جاء في القرآن والسنة وآداب السلف .

قال تعالى خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . والفظاظة هي الثقالة بعينها : فالله تعالى يقول لو كنتَ يا محمدُ فظّاً ثقيل الروح لكرهك العرب ولتفرقوا من حولك لكنك لست بفظ ولا ثقيل فلم ينفضوا بل التفوا حولك . وسمعوا قولك . وآمنوا بك . وهذا من فضل الله على الناس : إذ خلق لهم محمداً صلى

(١) رأينا هذا في مقال نشره بعض الفضلاء حديثاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الله عليه وسلم غير فظٍّ ولا ثقيل الروح حتى آمنوا به . ولو خلقه ثقيلاً لما آمنوا بالطبع ولكانت لهم الحجة على الله في إرساله رسولاً ثقيلاً .

فانظروا أيها السادة ما أبشع الثقالة وأسوأ أثرها في الأمم وكيف ان غلاظة نبيٍّ من الأنبياء تصلح عذراً لأُمته في أن يكفروا بدينه .

***

وقد افتتح (ابن المرزبان) كتابه (الثقلاء) بقوله : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لما أهديت زينب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع طعاماً ودعا القوم . فجاؤا فدخلوا فجعلوا يتحدثون وجعل رسول الله يخرج ثم يرجع . وهم قعود فنزلت (فإذا طعمتم فانتشروا الآية) وقد علَّق الحسن البصري رضي الله عنه على هذه الآية فقال : انظروا كيف أن الله تعالى ذمَّ الثقل في القرآن . فقال : (فإذا طعمتم فانتشروا) .

ويظهر من مجموع الآثار الواردة عن السلف أن استثقال الثقيل أدبٌ من آدابهم إذ في ذلك تربيةٌ للثقيل وتنبيهٌ له الى إصلاح نفسه . وتداركِ شرّ ثقالته . وقد جرى كثيرون من السلف الصالح على هذا الادب حتى كان ابو هريرة رضي الله عنه إذا ثقَّل عليه أحدٌ قال : اللهم اغفر له . وأرحنا منه .

فأبو هريرة يرى أن ثقالة الثقيل ذنب . ولذا دعا لصاحبها بالمغفرة أولاً . ثم الراحة من ثقالته ثانياً . وقال بعض الفضلاء الثقيل اذا عرف نفسه أنه ثقيل لا يكون ثقيلا . وهذا ما عناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : (من خاف أن يكون ثقيلاً فهو خفيف . وأما من أمن الثقل فهو ثقيل) وقوله (أمن الثقل) معناه أن يبرر نفسه ويشهد لها بأنها ليست ثقيلة . وهذه الطمأنينة لنفسه تجعله يغفل عن ردعها فتسرح وتمرح في ميادين الثقالة . وهو لاهٍ عنها . غير شاعر بثقالتها . وهذه هي المصيبة العظمى . فسيدُنا عمر رضي الله عنه نبَّه الناس وحذَّرهم من هذه الخطة الملعونة . وأوصاهم بان يسيئوا الظن بأنفسهم لئلا يتورّطوا في الثقالة من حيث لا يشعرون .

وكما أن الثقيل اذا اعترف بثقالته لا يكون ثقيلاً كذلك اللطيف الخفيف الروح اذا تباهى بلطافته وافتخر بخفته لا يكون لطيفاً ولا خفيفاً . وزِد على ذلك أنهم صرحوا بأن اللطيف الخفيف الروح اذا استأنس بالثقيل واستلطفه كان ثقيلاً مثله : قال المؤلف (ابن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرزبان) نقلاً عن بعض الفضلاء : (إن الاستئناس بالثقيل آيةٌ على الثقالة : اذ كل طيرٍ انما يطير مع شكله) .

ومن علامات الثقالة الإلحاح في طلب الحاجات من الإخوان مهما اعتذروا له بعدم إمكان إجابة سؤله . وقديماً ماأوصى الحكماء بترك الإلحاح حتى قال حكيم العرب اكثم ابن صيفي (من ألحف في مسألة فقد أبرم وأثقل) .

ومن علامات الثقالة أيضاً أن يتبوأ الزائر من المجالس مكاناً ليس من العادة الجلوس فيه كوسط الحلقة مثلاً . وقد روي أن رجلاً قعد وسط حلقة سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه . ولم يكفه هذا حتى التفت الى حذيفة وقال له : ان فلاناً صديقك مات . فاغتاظ حذيفة . وقال له وانت أحق على الله أن يميتك : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يلعن الجالس وسط الحلقة .

وما كان السلف يتورعون من ذكر الثقيل بما فيه : فكان حماد ابن زيد اذا رأى (عفان) قال ما أثقلك ! !

وقال ابو نعيم سمعت سفيان الثوري يقول لزائدة بن قدامة لو كنت من البغال لكنت من بغال النقل . اي لأن بغال النقل تكون كبيرة ضخمة غير مروضة ولامهذبة بينما بغال الركوب تكون مرهفة الأعضاء لطيفة الجرم وتكون مع هذا مروضةً مطبوعةً على حسن السير .

وعن محمد بن عبد الرحمن قال : قال ابن طاووس (لكلام الثقيل أشد عليّ من الشيطان)

وروي مخلد أن اباعاصم كان يقول (اذا ابغضت الرجل لثقله أبغضت شِقي الذي يليه) اي يبغض جسمه الواقع من جهة ذلك الرجل .

بل غلا ابن السماك في ذلك حتى قال : كم من رجلٍ خفيف الروح اذا نزل به بلاء تمنينا لو نتحمل عنه بلاءه بيناً آخر من الثقلاء نحب ان يموت ونرتاح منه وأنشد :

(وثقيل أشد من ثقل المو ت ومن شدة العذاب الاليم)

(لو عصت ربَّها الجحيم لما كا ن سواه عقوبةً للجحيم)

وروى نصر الصائغ قال كنت عند (أسود بن سالم) فجاءه رجل من احد جانبيه فسلم عليه فلم يرد ابن سالم السلام عليه . وغمض عينيه . فدار الرجل وجاءه من الجانب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآخر فسلم . فلم يرد عليه . فقال له : يابا محمد لمَ لا ترد السلام ؟ فالتفت أبو محمد الى من حوله . وقال لهم : انظروا الى رجلٍ غمضت عيني لئلا أراه ومع هذا فهو يريد مني أن أرد عليه السلام . الى هذا الحد كانوا يتبرمون من الثقلاء حتى استجازوا عدم رد السلام عليهم مع أن رد السلام فرض . وكأن ابن سالم لما رأى الثقيل قد سلم دون أن يحافظ على آداب التسليم رأى هو أن يقابله على عمله فلا يرد عليه السلام .

وكان السلف يتفننون في هجو الثقيل ووصفه بأساليب كلامية : فيها حسن صنعة . وفيها شفاء غيظ : قال المؤلف : حدثنا محمد بن قدامة عن ابي أسامة قال سمعت هشام ابن عروة يقول لرجل (لأنت اثقل من الزواقي) فلم يفهم ابن قدامة معنى كلمة (الزواقي) قال : فذهبت الى (الفراء) إمام النحاة فسألته ماالزواقي ؟ فلم يعرفها . فقال بعض جلسائه : إن العرب كانت تسمر بالليل سمراً يلذ لها ويطيب . فاذا سمعت زقاء الزواقي (اي صياح الديوك) شق عليها مجيء الصبح المؤذن بتفرقهم . قال ابن قدامة فأعجب الفراء بذلك .

فالزواقي إذن هي الديوك التي تزقو أي تصيح وقت الفجر وتفرق أرباب السمر وتشتت شملهم فهم يستثقلونها اذا سمعوا صوتها .

بل الأعجب من ذلك مارواه محمد بن سعد قال : كان في المدينة المنورة رجلٌ له ولدان لم يكن بالمدينة أثقل منهما وكان أبوهما صالحاً طيب النفس . فذكروا يوماً الثقالة في مجلسه فقال : (على رسلكم : امرأته طالق إن كانت الزوراء عند احد ابني الاجاروشة) : و (الزوراء) قصرٌ عظيم جداً بناه عثمان رضي الله عنه في المدينة . فالأب يحلف أن ذلك القصر على ضخامته ماهو الا جاروشة (أي حجر طحن) بالنسبة الى ثقالة ولديه حقاً إن ظرافة هذا الأب تخفف من ثقالة ولديه . وتجعلنا نترحم عليهما وعليه .

وحاصل القول أن السلف رضي الله عنهم كانوا اذا اشتدت عليهم ثقالة الثقلاء فرجوا كربهم . وفشّوا وطيبهم . بما يصوغونه من الأساليب البليغة . والنكت المستملحة . ولكن بعضهم كانت تفاجئه ثقالة الثقيل قبل أن يستعد لها فيدهش ويفحم : فقد روى حماد بن زيد قال : حدثني شيخ من اعراب البادية قال : كان عمي رحمه الله إذا رأى ثقيلاً غشي عليه . وهذا الإغماء الذي كان يصيب ذلك الأعرابي عند رؤية الثقلاء يدل على رقة شعور وحساسية نفس اكثر من اللازم . أما ابن عائشة المغني المشهور فقد كان اذا رأى ثقيلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكتفى بقوله : صنجة ميزان . وهي عياره من النحاس الأصفر كالرطل ونحوه . والأفصح في كلمة (صنجة) ان تلفظ (سنجة) بالسين لا الصاد . وهي معرب (سنكة) بالفارسية .

وابو أسامة كان إذا رأى ثقيلاً مقبلاً لا يغمى عليه بل يكتفي بقوله تغيمت السماء .

وروى المؤلف عن والده أنه قال : كان بعض مشايخنا إذا رأى ثقيلاً صاح : (الحجر الحجر) ومراده بالحجر الحجر ان الثقيل في ثقالته يشبه الحجر ويحتمل أن يكون أراد إئتوني بحجر لأرشقه به واطرده عن مجلسي .

اما (وكيع) رضي الله عنه فأمره غريب : ذلك انه اذا جلس اليه احد الثقلاء غمض عينيه وقام كيلا يراه .

ووكيع هذا هو شيخ الامام الشافعي رضي الله عنه . وقد عناه الامام بقوله :

(شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي)

(واخبرني بأن العلم نورٌ ونور الله لا يُهدى لعاصي)

وهكذا كانوا يتفننون في اساليب الكلام ليدلوا على نفرتهم من الثقيل . وبعضهم كان لا يرى شفاء غيظه منه إلا بأن يعرّفه صراحةً بأنه ثقيل . فقد روى معمر رضي الله عنه قال كنت جالساً في مجلسٍ بصنعاء اليمن مع السماك بن الفضلي . فدخل عليه فتى يستثقله فقال لي يامعمر تعال حتى نعد ثقلاء صنعاء . فجعل يعدهم واحداً واحداً ثم عدني أنا منهم ثم عدّ الفتى بعدي . فسكت الفتى ولم يمكنه الإحتجاج .

وروى مجالد ان الشعبي كان يقول (من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء) . وقد يقال إن إبليس هو الذي شغله عن الصلاة فما ذنب الثقيل ؟ ولكن الشيخ الشعبي هكذا رأيه في المسألة . وروي أيضاً عنه أنه كان قاعداً في مجلسٍ فأقبل رجل فلما رآه الشعبي قام منصرفاً وقال ثقيل والله .

والصحابي الجليل (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه كان يذهب في استثقال الثقلاء إلى أبعد من هذا كله : كان يقول (إن الثقيل ليدعوني أحياناً الى طعام فأقول له إني صائم . ولا اكون صائماً) يعني انه كان يترك إجابة الدعوة المسنونة في الإسلام كي لايجالس الثقيل على طعام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعن ابن شبرمة قال سمعت الشعبي يقول : من النـاس من يخفّ ومنهم من يثقل حتى كأنه رحى ركبت فوق ظهري .

والامام الشعبي هذا من كبـار علماء السلف وقد تكررت الروايات عنه في استثقال الثقلاء . ومثله في ذلك (شعبة) و (شريك) و (الاعمش) فإنهم أيضاً من علماء السلف ورواة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد روى (ابن المرزبان) في كتابه (الثقلاء) الذي نحن بصدده اخباراً كثيرة مروية عن هؤلاء الأئمة الأربعـة : الشعبي وشعبة وشريك والأعمش : اربعتهم من علماء السلف . وأول اسمائهم شين . الا الأعمش فشينه في آخره . وهم متماثلون في حب النكتة والميل الى الدعابة البريئة . كما أنهم رضي الله عنهم اتفقوا على استثقال الثقلاء . والتفنن في إظهار النفرة منهم .

وفي كتاب الثقلاء الكثير الطيب من أخبارهم وأقوالهم . وقد سمعتم آنفاً ماقاله (الشعبي) من أن من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء أما (شعبة) فقد روى مزاحم عنه قال : سألت شعبة عن رأيه في أبي بكر الهذلي فقال (دعني لا أقيء) اي إن مجرّد ذكر الهذلي يكاد يضطره الى القيء . فكيف به لو رآه أوجالسه أو سمع كلامه ؟

وأما (شريك) ويسمى (النخعي) أيضاً : فقد روى عبدالرحمن الخوارزمي عنه قال : لقيت شريكاً فقلت حدثني بحديث كذا وكذا . فحدثني . فقلت : حديثاً آخر . فحدثني . فقلت وآخر . فقال لي باللغة الفارسية (أنت ثقيل) . ولو كنت ثقيلاً بالعيان لخف الأمر وهان ولكنك ثقيل على القلب ايضاً) .

والحقّ أن الخوارزمي لو لم يكن ثقيلاً لما استوقفه في الطريق وكلفه أن يحدّثه المرة بعد المرة . واذا كانت الاحاديث التي كلفه اياها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم (وهي كذلك في الغالب) كانت ثقالته أشد وانكى . اذ كيف يليق أن تتخذ قارعة الطريق حيث العامة والغوغاء — مدرسةً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلنا إن (شريكا) هو الذي يلقب بالنخعي . فهو عربيٌّ قحٌّ منسوب الى قبيلة النخع إحدى قبائل مذحج العربية اليمنية القحطانية . ولا نعلم كيف تعلم اللغة الفارسية . وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رضي الله عنه يقصد من جميع الأقطار لتلقي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تولّى قضاء الكوفة في زمن الخليفة المهدي ثم ابنه هرون الرشيد . ومات سنة ١٧٧ للهجرة فلنفرض أنه حذق الفارسية بسبب من الأسباب ولكن ما هو السبب الذي جعله يشتم الثقلاء باللغة الفارسية لا العربية ؟

هل ان شدة تعصبه للغة العربية الشريفة حملته على ان يكرمها ولا يلوثها بسبّ الثقلاء . ومن سبّه للثقلاء بالفارسية ايضاً ما رواه ابن المرزبان قال : حدثنا احمد بن زهير قال حدثنا يحيى بن أيوب قال حدثنا بعضهم أن رجلاً كان يتكلم في مجلس شريكٍ فأكثر من الثرثرة وهراء القول فقال له شريك بالفارسية (گران گران سخت) ومعنى ذلك بالفارسية (ثقيلٌ ثقيلٌ جداً) .

ذكرنا آنفاً أيها السادة أن هؤلاء الأئمة الاربعة (شريك وشعبة والشعبي والاعمش) كانوا أهل ظرفٍ ونكتة وأشهرهم في هذا المعنى الأعمش . فقد روى العباس بن يزيد قال : أهدى رجلٌ الى الاعمش بطيخةً . فلما أخذ الأعمش مجلسه في الصباح حضر الرجل فقال له : (يا أبا محمد كيف كانت البطيخة) قال : طيّبة ثم عاد الرجل ثاني يوم وسأله عن البطيخة فقال طيبة ثم ثالث يوم كذلك . فصرخ الأعمش ان كففت عني وإلا تقيأتها .

فالتذكير بالاحسان من آيات الثقالة ايضاً اذ هو كالمنّ المنهي عنه شرعاً . وجاء حجاج ابن أرطاة الى الأعمش فاستأذن عليه فقال : قولوا له ابن أرطاة على الباب . فقال الاعمش . (أأبكيءُ على بكيءٍ ؟) ولم يأذن له . واصل العبارة في كتاب الثقلاء هكذا (ابكي عليه ابكي عليه) ولا معنى لها ولعل الصواب ما قلته وأن يكون أصلها (ابكيءُ على بكيءٍ) و (بكيء) فعيل من البكاءِ بالهمزة وهو قلة لبن الناقة . هذا أصل معناه في اللغة ثم نقله البلغاء الى معنى قلة الكلام عيّاً وفهاهةً فالأعمش بسبب مرضه أصبح بكيّاً اي ثقيل اللسان عسر النطق . وذاك الزائر (اي الحجاج بن أرطاة) غير فصيح ولا يحسن الكلام فهو فدمٌ عيّ . وأي مصابٍ أن يجتمع عيّان : لا يتفاهمان . ولا يخلصان في حديثهما الى بيان .

وعن اسماعيل بن ابي خالد عن الشعبي أنه قال : (عيادة حمقى القرّاء أشدُّ على أهل المريض من مرض مريضهم) وذلك أنهم يعودونه في غير وقت عيادة ويطيلون الجلوس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانوا يريدون بالقراء ما نريده اليوم بكلمة (فقهاء) أو (طلبة) وفي مصر (مجاورون) وفي بلاد الترك (صُفته) وعكوف هؤلاء السُفط على دراسة علوم الدين تجعلهم كغيرهم من المتخصصين في فنهم : منعزلين عن الناس ذوي عقلية خاصة غير ملمين بطبيعة البيئة التي يعيشون فيها ولا بعادات أهلها ولا يعرفون شيئاً مما يدور في مجالس أنسهم واذا تكلموا فإنما يتكلمون في مسائل فنونهم التي تخصصوا فيها . ولا كل أحد يفهمها أو يهتم بها . فاذا كانوا في مجلس لم يعرفوا كيف يجارون أهله في حديثهم . ولا يشار كونهم في مطارحاتهم . ولا يتفطنون الى نكاتهم . ومن أجل ذلك يستثقلهم الناس ولا يحبون مجالستهم .

على ان الشعبي نسب ثقالة طول الجلوس عند المريض الى حمق القرّاء مع أنها دأب كل ثقيل لا حمق القراء وحدهم . ألم يبلغكم خبر الأعمش مع عُوّاده ؟

مرض الأعمش مرة وعاده جماعة من الثقلاء فأطالوا الجلوس عنده حتى ملّ وسئم ثم ما كان منه الا أن قام وتناول وسادته وخرج من الباب قائلاً : شفى الله مريضكم .

وعن عليّ بن يحيى أن المأمون قال يوماً لجلسائه : لِمَ صار الثقيل أثقل على القلب من الحمل الثقيل على الجسم ؟ فلم يجب منهم أحد وقالوا : أمير المؤمنين أعلم . فقال : لأن الحمل الثقيل يحمله كل من الروح والبدن . أما الشخص الثقيل فتنفرد بحمله الروح ولا يعاونها الجسم فترزح المسكينة تحت عبء الثقالة من دون معين الا الله . ولا عجب ان يصدر هذا التعليل من المأمون فهو حكيم خلفاء العرب وارقهم شعوراً واكثرهم ظرفاً . وقد اتفق له ان تورّط يوماً مع مغنٍّ ثقيل فقال لجلسائه ما تعرفون في الثقيل ؟ فقال بعضهم : يقول الحكماء يا أمير المؤمنين : ان مجالسة الثقيل حمى الربع . فقال لهم المأمون : فكيف اذا كان مغنيّاً .

قال المؤلف : وروينا عن ابي الحسن قال : أتى شريك بن عبد الله رجلٌ من أصحاب الحديث أي من طُلاّب الذين يقصدون المحدثين للتلقي عنهم . وكان هذا الطالب يسمى (أبا سويد) فجاء يسأل شريكاً عن أطرافٍ كانت معه . ويعني علماء الحديث بالاطراف عباراتٍ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتصر عليها الراوي ولم يروِ بقيتها فالرجل جاء يسأل شريكاً عن أطرافٍ من أحاديث لا عن أحاديث تامةٍ كاملة . وكان ذلك في يوم شديد الحر فأكثر على شريك من الكلام والثرثرة وثقل عليه جداً . وشريك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صابر وفي آخر الأمر صاح شريك : (يا جارية تعالي) فأقبلت . فقال لها : (أسبلي الستر وأخرجي الذباب وأبا سويد ايضاً)

وطلاب الحديث عادةً يكونون شديدي الحرص في طلبه . وتحقيق ألفاظه . وضبط أسماء رواته . فاذا ظفروا بمحدثٍ أبرموه بالسوآل وأتعبوه بالإلحاح . ولذلك كثر تضجر المحدثين منهم كما سمعت من خبر شريك مع (أبي سويد) .

وكما روي ايضاً أن يحيى بن سعيد قال مرة لأحد هؤلاء الطلاب لأن تضربني بالسوط أحب اليّ من أن تسألني عن حديث . وقال عبيد الله بن عمر : جئت يحيى بن سعيد يوماً فأذن لي وقال من رأيت بالباب قلت فلاناً . فصكّ رأسه بيديه وقال . جبل جبل . ثم خرجت فرأيت الرجل مازال على الباب ولم أدر إن كان أذن له بالدخول أو لا .

والمحدث أبو أسامة اشترط في المستملي عنه أن لا يكون ثقيلاً : فقد قال سلمة بن شبيب سمعت أبا أسامة يقول إيتوني بمستملٍ خفيف على اللسان خفيف على الفوآد : إياي والثقلاء . إياي والثقلاء .

وقوله (إياي والثقلاء) أسلوب فصيح من أساليب كلام العرب . ومعناه باعدوا بيني وبينهم واحذروا أن تجعلوهم يقتربون مني . ومثله الحديث الشريف (اذا بلغ المرء الستين فاياه وايا الشواب) يعني اذا صار عمره ستين سنة فليحذر أن يتزوج من النساء الشابات وانما له التزوج بمن كانت عجوزاً مثله .

وهنا ملاحظة وهي أن أبا أسامة اشترط في تلميذه أن يكون خفيفاً على اللسان فهو إذن يتشاءم بالثقلاء حتى باسمائهم التي اصبحت ثقيلة بدلالتها عليهم .

وروى ابو الحسن المدائني قال : جاء رجل الى الأعمش فقال له (يا أبا محمد اكتريت حماراً بنصف درهم وأتيتك أسألك عن حديث كذا وكذا .) فأجابه الأعمش (اكتر بالنصف الآخر حماراً وارجع حالاً .)

على أني أقول ما كان ينبغي للمحدثين أن يستثقلوا طلاب الحديث فان لتحصيله لذة تحملهم على كل هذا الإلحاح والإحراج : وقد قلت في ذلك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(كلُّ [1] العلوم سئمتها فجديدها بالٍ رثيث)
(الا الحديث فانه مثل اسمه أبداً حديث)

وأخشى اذا تبرم المعلمون من طلابهم أن يقابلهم طلابهم بالمثل فيستثقلوهم وينشدوهم :

(لا تمنعنَّ العلم طالبه فسواك أيضاً عنده خبر)
(كم من رياض لا أنيس بها هجرت لأن طريقها وعر)

قال المؤلف : وأنشد ابو سعيد الاهوازيُّ يصف ثقيلاً بشعر على نسق عجيب فقال :

(لشؤم بخت ، وقضم قُتٍّ [2] والف سبتٍ وأربعاء)
(ونقل صخر ، وغيم شهر وطول هجرٍ ، على جفاء)
(وكسر ضلع ، ونتف صدغ بماء صُمغٍ ومومياء [3])
(أهون من أن تراك عيني تمشي اختيالاً على الثراء)

والابيات ظاهرة المعنى سوى قوله : ان الف سبت والف اربعاء هي اخف على القلب من رؤية ذلك الثقيل ، فلعل المعنى أنهم قديماً كانوا يتعطلون عن العمل يومين في الاسبوع (الثلاثاء) و (الجمعة) فيكونون فيهما في مسرة وهناء ، فاذا جاء يوم الاربعاء بعد الثلاثاء استثقلوه أما يوم السبت بعد راحة الجمعة فاسألوا صبيان الكتاب يخبروكم عن مقدار ثقالته .

قال ودخل رجل على (ابن مصقلة) يعوده فكان من حديثه أن قال له : ياابا عبد الله مات فلان ، ثم سكت ، ثم عاد ، فقال مات فلان ، وسكت ، ثم ثالثة ، فلما اراد ان يخرج قال ياابا عبد الله ألك حاجة ، قال نعم : لاتعودني مادمت مريضاً .

وذكر الزبيدي في شرحه على القاموس ان ابن مصقلة هذا يسمى رقبة وكان من المحدثين روى عن انس بن مالك وروى له الترمذي في صحيحه .

(١) البيتان لابن الرومي واصلهما هكذا :

(ولقد سئمت مآربي فكأن طيبها خبيث)
(الا الحديث فانه مثل اسمه ابداً حديث)

قوله الا الحديث أراد به حديث الندماء .

(٢) القتّ الفصفصة اليابسة وهو التي تسمى في مصر برسيما .

(٣) كأنه اراد بالمومياء الشمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعن حماد الراوية قال : اخبرني رجل عن نفسه أنه قال للفرزدق يا ابا فراس انشدني من شعرك قصيدة كذا وكذا . فأجابه الفرزدق (ياهذا إن قدرت ان لا تكون ثقيلاً فافعل) وقد أصاب الفرزدق : لأن هذا الثقيل وهو من عامة الناس يكلفه ان ينشده شعره . وهو إنشادٌ تتنافس به الخلفاء . فيحق للفرزدق ان يستثقل ذلك الرجل مذ استنشده على هذه الصورة .

وكما ابتلي الفرزدق بهذا الثقيل ابتلي زميله (الاخطل) بثقيل آخر تورط معه في غوطة دمشق .

ذلك ان الأخطل الشاعر الاموي المشهور كان يسمع بمعبد المغني الكبير ولا يعرفه فاتفق وجودهما في دمشق على باب الخليفة الاموي . فتعارفا وتآلفا وخرجا الى الغوطة ومعهما شراب وفاكهة وريحان وجلسا في احد البساتين على نهر جار . وتغريد أطيار وتناشد اشعار . واذا برجل قيل له : ان هذين هما فلان وفلان . فأحب الرجل مجالستهما وكان يسمع بشهرتهما فانسل اليهما . ونزل نزول العمى عليهما فصبرا صبر الكرام . وبعد سكوت عميق التفت الثقيل الى الأخطل وقال له : ياأخطل (أنظر القذى في كأسك) فحينئذ انفرج الكرب عن صدر الاخطل وشفى قلبه من الثقيل بهذين البيتين :

(وليس القذى بالعود يسقط في الإنا ولا بذباب وقعه أيسر الأمر)

(ولكن ثقيلٌ لا نودُّ اقترابه رمتنابه الأقدار من حيث لا ندري)

وروى الاصمعي عن ابن ابي طرفة (أن مجالسة الثقيل حُمّى باطنة) لكن (جبريل الطبيب) الدمشقي كان يقول إننا معشر الاطباء نجد في كتبنا أن مجالسة الثقيل حمى الروح . وقيل للشعبي هل تمرض الروح قال : نعم من ظل الثقلاء . قال فمررت به يوماً فوجدته قاعداً بين ثقيلين . فقلت له كيف الروح الآن ؟ قال في النزع .

ولعل العنصر العربي بطبيعته وأصل غريزته يكره الثقالة وينفر منها . واذا رأيت عربياً ثقيلاً أو يألف الثقلاء . وبحثت عن نسبه وجدت فيه عرقاً اعجمياً .

هذا معن بن زائدة (أمير العرب المشهور) كان اذا تذاكروا بين يديه في ملذات الدنيا يقول : (ان الوقيعة في الثقلاء من الملذات) ومعنى الوقيعة فيهم غيبتهم وذكرهم بسوء . دعونا من (معنٍ امير العرب) ودونكم ما روي عن (عليٍّ امير المؤمنين) فقد روى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(يمان بن ربيعة) أن رجلاً قال لسيدنا علي (ثبتك الله يا أمير المؤمنين) فقال (على صدرك) يعني ثبتني الله في القعود على صدرك فأتتلك أو أثقل عليك كما ثقلت عليّ بهذا الدعاء . ولعل في جو هـذه الحادثة ما يمهد العذر للامام عليّ كرم الله وجهه في أن يظهر كل هذا الضجر من ذلك الرجل الذي دعا له .

وروى الامام ابن المرزبان في (كتاب الثقلاء) خبراً عن عليّ رضي الله عنه له علاقة بالثقالة وهو أغرب من الخبر السابق :

تعلمون أيها السادة أن الاشتر النخعي من اكبر قواد سيدنا علي وأشد شيعته حباً له . ومغامرة في سبيله . وهو الذي شرب العسل في طريقه الى مصر فمات . فبلغ معاوية الخبر فقال (ان لله جنوداً منها العسل) .

فقد روى المؤلف ابن المرزبان قال: حدثنا ابو العباس عبدالله بن نصر حدثنا الحسين ابن علي حدثني محمد بن ابي الحرث حدثنا سفيان بن عيينة عن مخلد عن الشعبي قال: أخبرني عبد الله (ولعله يعني ابن عباس) أن علي بن ابي طالب عليه السلام كان يستثقل الاشتر اه.

هـذا هو الخبر بسنده ومتنه . وهو محل غرابة لا يكشف سرها الا المؤرخون المدققون في أخلاق السلف .

وأبشع انواع الثقالات (الثقالة المسجلة) تلك التي يكتبها الثقيل بقلمه في مكاتباته : فقد ولد لبعض فضلاء بغداد (واسمه ابراهيم . على اسم سيدنا ابراهيم الخليل) — ولد سماه محمداً (باسم النبي صلى الله عليه وسلم) فأرسل اليه ثقيل من اهل البصرة ينئه به فقال (بلغني انك سميت ابنك محمداً . وانت الى أعمال الانبياء . احوج منك إلى اسمائهم . وقبل هذا كان سماك ابوك إبراهيم . فما منعتك هـذه التسمية من سفك الدم الحرام . وشرب اكواب المدام . واكتساب المال من الآثام . وما أدري كيف ادعو لابنك : إن دعوت له ان يشبهك فالعار والنار وان دعوت ان لا يشبهك فالظنة والتهمة والشناراه) يعني اذا كان الولد لا يشبه اباه كانت امه موضع تهمة والعياذ بالله تعالى .

واستثقال بعض افراد العائلة لبعضهم من اشد منغصات العائلة : كتلك الاعرابية المسكينة التي أعيتها ثقالة بعلها فهربت من بيته وقال فيها شاعر القبيلة :

(وتاركة للبيت من ثقل بعلها كأن بعينيها قذى منه تهمل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(تود على حسن التبعل انها رأت بعلها بين العمودين يحمل)

ومعنى قولها (حسن التبعل) انها وان كانت تربت على طاعة بعلها وحسن معاشرته كما امرها الله والرسول لكن ثقالته جعلتها تهرب منه وتتمنى ان يموت ويحمل بين عمودي النعش .

ومن هذا القبيل ماروي عن الاعمش انه استثقل جلساءه يوماً فهرب منهم الى داخل الدار . ثم لم يلبث أن عاد اليهم فقالوا له مالك عدت ؟ فقال هربت منكم فاذا في البيت من هو اثقل . قالوا من ؟ قال : زوج بنتي .

والاعمش على جلالة قدره وحبه للنكتة يوجد في الامة العربية من هو اكبر مقاماً . وأحب للنكتة منه : ذلك هو الامام الثوري رضي الله عنه فقد سأله سائل ثقيل عن المسح على اللحية في الوضوء ؟ فقال له : خللها (اي ادخل أصابعك المبللة في خلال شعرها زيادة في التنظيف) فقال له الرجل (اتخوّف ان لا يبلغها الماء) . فقال له انقعها من اول الليل .

أما (سويد بن عبد العزيز) فانه لا يعجبه هذا من الثوري ولا يرضيه اطالة الحديث مع الملحين في السوآل . فهو ينصح ويقول : اذا ثقل عليك احد في سوآله فألزمه عيناً عميا وأذناً صما .

قلنا ان أعراب البادية تغلب عليهم الرقة ولطف الحس والنفرة من الثقالة والثقلاء ولكن مابالك اذا كان اعرابياً وعاشقاً ايضاً كيف تكون رقته ولطافته ؟ فقد روى الاصمعي قال : اراد اعرابي ان يكلم امرأة يحبها . فنظر فاذا رجل يراقبه فامتنع من كلامها وثقل عليه الرجل فما ملك نفسه أن خاطبه بهذه الجمل التي جمعت بين خشونة السب . ونعومة العتب . فقال له : (مالك رماك الله بداء عضال . يفقدني شخصك . ويسكنك رمسك . فقد ثقلت على عاشق مسكين . لم تشبع عينه من سهادها . كما شبعت عيون الناس من رقادها)

وكان ابن مصقلة أرق الناس وأرحمهم بالثقلاء فهو لا ينتهرهم ولا يسبهم . بل يتلطف بهم ويخاطبهم بعبارات غاية في اللين والنعومة فيقول للزائر الثقيل مثلاً (ياهذا داركم بعيدة والسماء متغيمة فقم مصحوباً بالسلامة) .

وقارنوا أيها السادة بين عبارة (ابن مصقلة) المصقولة الناعمة وبين ماخاطب به منصور ابن الحجاج الثقيل فقال (اللهم اقتله . وان كان قتله يقتلني فاقتله واقتلني) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يكفي يا سادتي إزعاجكم بأخبار الثقلاء : وقد مضى الوقت أو كاد . وأخشى ان اثقل انا عليكم ايضاً اذا زدت على ماتقدم .

بلى يمكنني أن أزيدكم . لكن زيادة لا تعدونها من التثقيل بل تعدونها من التخفيف وترويح النفس — زيادة من أحب ماتتعشّقه نفوسكم . وترتاح اليه قلوبكم :

تلك الزيادة هي حبُّ النبي صلى الله عليه وسلم للمزح الحق اذ كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقاً حتى إنه كان له من الصحابة (رضي الله عنهم) من يضحكه واشهرهم في ذلك الصحابي (نُعيمان بن عمرو بن رفاعة الانصاري) ممن شهد وقعة بدر رضي الله عنه .

فمن دعابات (نعيمان) أن أعرابياً قصد النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه . فقال بعض الصحابة لنعيمان لو عقرتها فاكلناها . فاننا في شهوة الى اللحم فنحرها نعيمان لهم . وخرج الأعرابي من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأى راحلته معقورة فصاح (واعقراه يا محمد) فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فعل هذا ؟ قالوا نعيمان . فلحقه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة واذا بنعيمان قد أختبأ في دار السيدة (ضباعة بنت الزبير) فجعلوا يفتشون عليه . فأشار رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم ورفع صوته قائلاً ما رأيته يارسول الله وأشار باصبعه الى حيث كان . وكان مختبئاً في سربٍ تحت أغصان من جريد النخل فأخرجه صلى الله عليه وسلم من مخبأه وقال له :

— ما حملك على ماصنعت ؟

— الذين دلوك عليّ يارسول الله . يعني انهم هم الذين امروه بما فعل .

فجعل رسول الله يمسح التراب عن وجه نعيمان ويضحك . وغرم ثمن الناقة للأعرابي .

وكان نعيمان يدخل السوق فيشتري من مأكولاتها بالدين ويأتي به النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً أُهدي هذا اليك . ثم إذا طالبه صاحب الهدية بثمنها جاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول له : أدِّ هذا ثمن متاعه . فيقول النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان : أو لم تهده اليّ ؟ فيقول : (والله إنه لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله) .

فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يكره البؤس والتباؤس . ويحب إحداث المسرة في نفوس اصحابه واهل بيته . ومن قوله في ذلك (ألهوا والعبوا فاني اكره أن يُرى في دينكم غلظة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الطف الاحاديث النبوية والمسامرات العائلية القدسية ماروته السيدة عائشة رضي الله عنها وهو ان امراةً من أهل مكة كانت تدخل بيوت قريش وتضحك النساء وقد اشتهرت بذلك : قالت عائشة فلما هاجرنا الى المدينة ووسع الله علينا دخلت تلك المرأة عليّ فقلت لها (فلانة ! ! ما أقدمك ؟) قالت (قدمت اليكن) . قلت فأين نزلت ؟ قالت على فلانة و كانت فلانة المذكورة امرأةً من اهل المدينة تضحك نساءها ايضاً .

قالت عائشة وبعد قليل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

فلانة المضحكة عندكم ؟ ؟ قلت : (نعم) . قال :

(فعلى من نزلت) ؟

قلت : نزلت على فلانة المضحكة فقال :

« الحمد لله ! إن الأرواح جنود مجندة : ماتعارف منها إئتلف . وماتناكر اختلف » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net